السفن والملاحة بمصر

من صلاح الدين الى نابليون

للدكتور علي مظهر

— ٢ —

عصر الايوبيين وسلاطين المماليك

ولما كان صلاح الدين وعصر الايوبيين عنى سلاطين هذه الاسرة بأمر الاساطيل دفاعاً عن البلاد التي كانت الفرنج تغير عليها او تطمع في ذلك . وقد افرد صلاح الدين للاسطول ديواناً وعين له عدة اقاليم وبلدان للانفاق عليه وكانت لهم اساطيل في البحر الاحمر كما كانت لهم في البحر المتوسط الابيض

ويظهر مما ذكره المقريزي ان عناية صلاح الدين بالاسطول كانت اكثر من عناية خلفائه فقد كانوا لا يتكررن في امره الا عند الحاجة وقلت العناية بذلك حتى طمع الفرنج في بلاده وهاجموها لما علموا بضعف البحرية الايوبية وسار الحال كذلك حتى ان كانت دولة المماليك الاتراك وعني الظاهر بيبرس البندقداري بأمر الاسطول (٦٥٨ هـ) وتقدم بعمارة الشواني في الاسكندرية ودمياط وكان يقوم على ذلك بنفسه وقد كانت بعض مراكبه تسير للفتح والغزو كما كانت تدافع احياناً عن مصر وغيرها وعنايتهم كانت ضرورية لان اساطيل الروم كانت تجيء الى الثغور وتتعدى على الاهالي بالسلب والنهب كما كانت تتعرض لسفن التجارة في البحر

وفي سنة ٩٠٤ هـ — سنة ١٤٩٨ م كانت سفن البرتقال قد اكتشفت طريق الهند مارة برأس الرجاء الصالح يقودها فاسكو دو غاما ثم ارسل فرانسوى دالميدا وأخذت السفن البرتقالية تخرب بين البصرة وعدن وتتعدى على سفن مصر والعرب التجارية وتنهبها وتستولي عليها وانقطع طريق الهند عن مصر

ولما طلب السلطان مظفر شاه ملك كجرات والسلطان عامر ملك اليمن المساعدة من السلطان الغوري[1] ارسل خمسين سفينة حربية وجيوشاً كثيرة يقودها الامير حسين بك الكردي (٩١٣ هـ)

---

(١) راجع مقالات (صفحة من تاريخ التجارة المصرية) للاخ زكي باشا مجلة المقتطف سنة ١٩١٧ (من عدد سبتمبر الى عدد ديسمبر)

لمطاردة سفن البرتقال بقيادة فرانسوى دالميدا وقد حدثت وقائع عادت بعدها سفن مصر بعد ان فقدت بعض قطعها ثم عاد سنة ٩١٧ هـ قاصداً كجرات ثانية وقد ساعدت سفن البنادقة السفن المصرية في هذه الغزوة البحرية لان الضرر لحق بالفريقين من تحويل البرتقال لتجارة الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وكان ذلك في أيديهم من قبل

ولم تكن سفن البحر الاحمر هي كل ما كان للغوري فقد كانت لهُ اساطيل بالبحر الابيض وقد رأيناهُ يمد الامير كركور اخا السلطان سليم بعشرين سفينة حربية لتساعدهُ على ان يكون سلطاناً بدل اخيه وقد وقع اغلب هذه السفن في يد العثمانيين . وقيل بل اصابتها زوبعة شديدة غرق كثير منها واستولى العثمانيون على باقيها . وفي سنة ٩١٩ هـ دخل اسطول برتقالي الى البحر الاحمر واخذ في اعمال النهب والتخريب فسار اليهِ الاسطول المصري بقيادة الامير حسين بك الكردي وقد تمكن من اجلاء السفن البرتقالية عن عدن فلما انتصر المصريون ساد الاسطول البرتقالي طالباً عرض البحر

وعاد الاسطول المصري الى مياه اليمن فعاد البوكرك Albuquerque البرتقالي باسطوله واراد الاستعانة بنجاشي الحبشة على المصريين وفاوضهُ في امر تحويل مصب النيل الى البحر الاحمر ليموت اهل مصر وبلادها عطشاً (!!!) وكان يظن هذا امراً يسيراً

وقد ضايقتهُ الاساطيل المصرية واحتلت جزيرة قران كما استولت على كثير من بلاد اليمن واقلع الامير حسين الى عدن وهاجمها واستولى على زيلع وقيرها وجاءهُ مدد بقيادة الامير سلمان احد امراء مصر فجعلهُ يرافق سفن تجار عدن القاصدة بلاد الهند وكان سلمان هذا على خمسين غراباً[1]

وما زالت سفن البرتقال تتعدى على سفن المسلمين في تلك المياه حتى استولت الدولة العثمانية على مصر وقامت اساطيلها بمحاربة البرتقال حتى منعت عدوانهم واطمأنت ثغور بلاد العرب من شرهم

البحرية بمصر بعد ان صارت ولاية عثمانية

لما فتح سليم مصر وضع لها نظاماً تسير عليهِ في ادارتها وجعلت اساطيله تتردد على مياهها اما لحراستها او لاظهار قوة الدولة في نفوس من بقي من المماليك لاسيما على ثغور البحر الابيض

وبعد ان عاد السلطان الى الاستانة كان خير الدين بك الوالي الفعلي الذي تركه سليم على مصر فاخذ في اصلاح المراكب الموجودة بالنيل يساعدهُ في ذلك خير بك امير الامراء

اما ما كان لمصر من اغربة (مراكب بحرية) بالبحر الاحمر حينئذٍ ايام قانصوه الغوري فقد كان معظمها قد ضاع وفقد وما بقي منها حجزهُ الامراء المصريون بجهات اليمن بقيادة سلمان رئيس الاسطول الذي ذكرنا اسمه

وجاءت الاخبار من مكة في سنة ٩٢٥ هـ انهُ يوجد للفرنج (البرتقال) ما يقرب من اربعين

(١) نوع من السفن ايامئذ ولمعرفة اسماء السفن يراجع كتاب سفن الاسطول الاسلامي لعبد الفتاح عباده

مركباً في قيالة جدة وان هانه لمراكب بقيت بالبحر وتقوم باعمال القرصنة وتقطع على التجارة طرقها فما وسع والي مصر الاّ ان أرسل جماعة من المماليك الشراكسة وغيرهم يبلغ عددهم ثلاثمائة مع الحجاج وجعلهم يقيمون في جدة خشية ان يطرقها الفرنج ويفاجئوها وقد ساروا برّاً لانهُ لم تكن لديه قوة بحرية يرسلها لهذا الغرض

ومن ذلك الحين اخذت العناية ببناء السفن تزداد واهتم بصناعتها خير الدين بك فأمر بذلك في دار صناعة بولاق وقد جاء في تاريخ ابن اياس (ج ٣ ص ٢١٤) ان ملك الامراء عرض المراكب الاغربة التي انشأها ولعبت قدامه في البحر وانشرح من ذلك سنة ٩٢٦ هـ . اهـ

وقد كان من جراء التعدي المتوالي من مراكب البرتقال على السواحل المصرية وغيرها بالبحر الاحمر ان اهتمّ السلطان سليمان بأمر الثغور البحرية فجعل أنظمة خاصة لادارة السواحل المصرية والامور البحرية فيها وعين ثلاثة امراء بحر لمصر كل امير لثغر من ثغورها دمياط والسويس والاسكندرية وسُمّي كل منهم قبودان بك وكان تعيينهم وابتداؤهم بغيرهم راجعاً الى السلطان مباشرة

وكانت الدولة ترسل حاميتها رأساً من الاستانة تحت قيادة امراء البحر المذكورين وتمدهم كل سنة بما يلزم من الذخائر الحربية

ولم يكن هؤلاء الامراء البحريون يعتبرون من جيوش مصر الاّ لانهم يقيمون في ثغورها وتصرف لهم مرتباتهم من خزانتها الا انهم كانوا مستقلين تمام الاستقلال عن حكومتها وكانوا يتلقون الاوامر من دار الخلافة رأساً وكثيراً ما كانت توجد اغربة حربية تحت قيادة هؤلاء الامراء البحريين ما عدا من كان بالسويس لما ذكرناه

ولما ازدادت العناية بصناعة السفن ارسلت بعضها وعليها بعض الملاّحين العثمانيين والمغاربة لمقاتلة البرتقال وكانوا يعثون بالبحر الاحمر فقاتلوهم حتى تغلبوا على المراكب البرتقالية وقبضوا عليهم واخذوا ما كان معهم بالمراكب وكان بها بضائع وجوخ واصناف فاخرة وكبلوا الفرنج وارسلوا الى ملك الامراء وكان ذلك عام ٩٢٧ ثم جهزت مراكب اخرى في اواخر تلك السنة لما عاد البرتقال الى العبث بالسواحل المصرية واعمال القرصنة وقد وجدوا سفن الفرنج وفيها ثمار ومعهم بضائع قدرت قيمتها بخمسين الف دينار ودار القتال بينهما فدارت الدائرة على البرتقال وقبض عليهم وأخذت بضائعهم (ابن اياس ج ٣ ص ٢٧٤ — ٢٧٧) وزاد عبث البرتقال في البحر حتى كادت التجارة بين مصر وغيرها من بلاد العرب وبلاد الهند تنقطع الى ان استغاث بهادر شاه حاكم كجرات من بلاد الهند بالسلطان سليمان وكانت اساطيل البرتقاليين تتعدى على بلاده لتمنع التجارة بين الهند ومصر فأصدر سليمان امره الى والي مصر اذ ذاك الخادم سليمان باشا (٩٤٤ هـ) بأن يسيّر اسطولاً في البحر الاحمر لنقل الجنود العثمانية الى بحر الهند فجهز ستين غراباً وثلاثين سفينة بالمدافع والآلات الحربية واسرع في عمل ذلك واقلع بها من السويس ومرّ بعدن وقتل اميرها عامر بن داود وستة نفر من

اصحابه ونصب عليها احد ضباطه المسمى بهرام بك وزوّده بالمدافع والجنود ثم اقلع الى الهند ومع ما بذله من الجهود بجهات دبو فانهُ لم يتمكن من طرد البرتقال عن تلك الجهات فعاد الى عدن ثم الى مُخا واقلع من بلاد اليمن الى مصر

***

ومما يحسن ذكره ان الاخشاب اللازمة لبناء هاته السفن كانت تجلب من اصاليا (بلاد الاناضول) وتنقل بواسطة السفن ثم تنقل على النيل الى القاهرة وتحمل من القاهرة على الجمال الى السويس حيث تبنى منها السفن المطلوبة

ومع ان سليمان باشا هذا لم يقض الوطر من حملته الى بلاد الهند الاّ انهُ طرد امير عدن وكان موالياً للبرتقال كما امكن ان ينشىء حكومة جديدة في بلاد اليمن وقد عادت تلك الحملة البحرية ببعض الفوائد لرائدي البحار

وقد بنيت بعد ذلك سفن عديدة وجهزت بالمعدات اللازمة وسارت الى البحر الاحمر وبحار الهند وخليج العجم وكانت تقاتل اساطيل البرتقال في تلك البحار واستمرّ ولاة الدولة يصنعون السفن لتشارك اساطيل الدولة ولتحمي البلاد من عدوان الغير ولتجعل طريق المواصلات آمنة بينها وبين البلاد الحجازية وسواحل اليمن وتغور الدولة بالبحر الاحمر واستمرت هذه العناية بصناعة السفن حتى النصف الاخير من القرن الثاني عشر الهجري فأخذت القوة البحرية في مصر تتضاءل وتنحط لضعف الولاة ولضعف الدولة نفسها ولما كان بمصر من الاضطرابات والفتن والثورات واستمرت الثورات حتى اضطرت الدولة ان ترسل امير البحر (القبودان) حسن باشا الجزائري ببعض سفن حربية ونقالات للجند ليوقع الرعب في قلوب الامراء المتمردين (مراد بك وابرهيم بك) وكان ذلك سنة ١٢٠٠ هـ. وقد جاء بسفنه وعساكره الى مصر صاعداً في النيل من طريق فوة وغيرها رغم ما اظهره الامراء من الطاعة والخنوع لاوامر الخليفة واضطر العساكر ان يقروا الى الصعيد وتم اخيراً الصلح بينهم وبين امير البحر حسن باشا المذكور وهدأت الاحوال وأقام حسن باشا بالصعيد اربع سنوات ثم عاد الى القاهرة وشرع في انشاء دار صناعة بالجيزة وصنعت فيها السفن وجعل بحارتها ورئيسهم من نصارى الاروام واصبح لرئيسهم نيقولا من النفوذ العظيم والسطوة ان اكثر من التعدي على سفن الاسلام والفرنج معاً. وقد ذكر العلامة جودت باشا في تاريخه انه كان من اسباب الحملة الفرنسية على مصر ما اتاه هذا الرئيس نيقولا من المظالم وما اوقعهُ بالتجار الفرنسيين وقد عاد حسن باشا امير البحر بأسطوله الى الاستانة وفي عهد سليم الثالث ازدادت اهمية البحرية العثمانية لما ادخل عليها من الاصلاحات وقد ارسل بعض السفن لحراسة البلاد المصرية

ثم جاء نابليون الى مصر وكانت معركة ابي قير الشهيرة وتمّ اخيراً الامر لمحمد علي وسنرى ذلك مفصلاً في مكانه في العدد التالي